اللحظة ذاتها ، وقد احتاج خروجي من ذلك الوهم جهدا يكاد لا يصدق ، مثلما يقتلع الرجل جذر شجرة ، وكدت اجعل نفسي نكتة الموظفين في المكتب .

والآن ، أول ما يحدث لي هذا الصباح شيء لا مثيل له ، فأعيش بين عبد العاطي والولد والطفل ، الخبز والميزان والسكين ، حلما جديدا يكاد يشبه كابوسا يصاب به حارس ليلي جديد لمتحف قديم .

لا شك ان شيئا رهيبا يحدث لي ، ولا ريب بوجود مخرج ما ، لـم استطع الى الان استكشافه او تلمسه ، وكان عبد العاطي جالسا هناك ، مغوصا هو الآخر كما بدا لي ، في عالمه الذي لا يعرف احد أين يقع قراره ، وقلت لنفسي : أتراه يفكر بالشيء ذاته ؟

قلت فجأة ، دون ان ادرك بالضبط ما الذي كنت أنوي قوله :

ـــ « أتعرف يا عبد العاطي ؟ يتعين علي انا وكذلك انت ان نفعل شيئا . لا ينبغي ان نستمر كذلك ، لم يعد بوسعنا أن نستمر حتى لو اردنا . يجب ان نفعل شيئا ... »

وكان عبد العاطي يتجه برأسه نحوي ويستمع بكل جسده ، ليس بأذنيه فحسب ، وقد هز رأسه موافقا على ما قلت ، الا انه أشار الى داخل الفرن اشارة لها معنى ، فقلت :

ـــ « تقصد الولد ؟ انا وانت والولد ؟ »

هز رأسه ، فيما مضيت أقول :

ـــ « وماذا ينفع ذلك الولد ؟ انني متأكد انه يكرهني ويكرهك ، وذات يوم سيقتلنا » .

ابتسم عبد العاطي ، وقال شيئا وهو يهز رأسه منكرا ما قلته ، الا أنني لم أكن مقتنعا بجدوى هذا الثلاثي المتنافر الذي لا يعرف اين يتعين عليه أن يذهب .

قلت :

ـــ « طيب ... حتى لو كنا ثلاثة ، انا وانت وذلك الولد ، فماذا ترانا سنفعل ؟ »

ولم أعد احاول معرفة ما سيقوله عبد العاطي ، فقد كنت متأكدا انه يعيش مثلما أعيش ، وسط تلك الغابة الكثيفة من علامات الاستفهام ، فمضيت أتحدث وكأنما لنفسي :

ـــ « نستطيع مثلا ان نذهب فنحطم قبر الولي ونخلع شجرته ونفش غلنا . نستطيع أن نذهب فنضرب مصطفى ونرغمه على الزواج من زينة . نستطيع أن نلقي خطابا في جموع اللاجئين الذين يقفون بالصف لتسلم الاعاشة . نستطيع أن نفعل ذلـك وأكثر ... نستطيع أن نعود الى الطيرة .. الا نستطيع ؟ »

تلك اللحظة دخل الولد مرة أخرى ، قادما من الفرن ، ويبدو انه سمع جزءا مما كنت أقوله ، فرماني بتلك النظرة القاسية التي يعطيهـا جسده الحديدي العاري نبرة اشد قسوة ، واتجه الى عبد العاطي بالحديث ، وقد استغرق الاثنان بالجدل فجأة حتى انهما لم يلتفتا الي وانا اقف ، ثم أغادر الفرن خارجا الى الطريق الذي كان يسبح ، صامتا ، في وهج الشمس .

ـــ ١٢ ـــ

ها انت تغطس في عتمة الذاكرة كما تنطفىء الشمعة ، أيها الولي المقدس النائم في البرية تحت شجرته المباركة ، وحين ذهبت انما اخذت معك كل الشموع التي أضاءتها أمي في ليلي الذي قالت لي انه سيمتد الى الابد ، وقد حسبت ان العتمة ستزداد حلكة ، ولكنها بقيت على حالها ، وها أنت ذا توغل في الماضي كأنك لم تكن قط .

وطوال أيام ، بعد أن قتلناك تلك الليلة في اعماق البرية ، كنت انتصارنا الذي رد الينا نبض الحياة في صدورنا ، وها هي الايام تمضي ، فاذا بموتك يفقد نضارته ، واذا بنا